بين الأمس واليوم، تبدّلت أحوال الزيتون في إقليم الخروب. «العتاق» ماتوا والبركة خفت. بعض الأولاد طردوا الأرض من قاموسهم، إلى درجة أنّهم لا يعرفون أين تقع الحقول التي يملكونها. وآخرون لا يتذكرون المكان إلا حين يحل موسم القطاف، فيكلفون من يقوم بالمهمة عنهم

إقليم الخروب

الله يطرح البركة

يفتقد أهالي المنطقة أيام «العونة» بين أهل الضيعة الواحدة (كامل جابر)

فاتن الحاج

يوم حمل بطرس ضومط «مسّاسه» على كتفه إلى كرم زيتون «ضمنه» قبل 30 عاماً، تعجب كيف منعه الخوري من دخول الحقل. في تلك الأرض التابعة للوقف، لا مكان لمثل هذا «المفراط» أو القصبة في قاموس القطاف. «التمشيق» باليد والقطع بالمنشار للأغصان المرتفعة هما الوسيلتان الوحيدتان المسموح بهما هنا، يقول الثمانيني، مستعيداً أياماً كان كل شيء فيها «على الطبيعة». لا يذكر أنّه شاهد يوماً ورقاً أصفر على «مطعوم» الزيتون أو اضطر إلى استخدام المواد الكيماوية. اليوم، يطلّ ضومط على زيتونه في بلدته المغيرية ليتفقد حاجاته فقط. لم يعد «الختيار» قادراً على التعامل مع أرضه بيده. أولاده لا يرغبون في ذلك أيضاً. يصرّ الرجل فقط على فصل الورق عن حبة الزيتون في البيت كي لا «يمرمر» الزيت، ويجبر الأبناء والأحفاد على مساعدته في ذلك. هو لا يثق بـ«شفاط» المعصرة الذي يقوم بهذه المهمة. في ما عدا ذلك، فقد أوكل المهمات الأخرى إلى ابن قريته جميل عابدين.

جميل هذا رافق والده إلى الكرم مذ كان في الرابعة عشرة، وربما يكون وحيداً بين أبناء جيله الذي يتخذ من الزيتون مصدر دخله الأساسي. الوالد، أبو زين، ابن التسعين عاماً، لا يزال بالمناسبة يرتاد المكان ويناقش ابنه في كل صغيرة وكبيرة. يحافظ الأربعيني على الأرض مثل ابنته تماماً كما كان يفعل أبوه. يعيش معها وتعيش معه. لا يفعل ذلك مع رزقه فحسب، بل مع كل الأراضي التي يضمنها. يحرثها 3 مرات، يقلّم الأغصان، ينكش بالمعول حول المطعوم. هذه ليست حال كثيرين يطلّون على الزيتون من الموسم إلى الموسم. لكن لا غنى عن «الكيماوي»، يستدرك عابدين. الملح المستخدم في الماضي لا يكفي وحده، برأيه، لذا لا بد من «البوتاس» وغيره من المواد من أجل إنتاج أفضل. «المسّاس» من عدة شغله أيضاً وإن كان «يسمّ» الشجرة، لكن الكمية «اللي منشيلها» هي أربعة أضعاف الكمية فيما لو كانت الطريقة المستخدمة هي «التمشيق». ماذا سأفعل مع 300 دونم أتسلّمها كل موسم؟ يقول.

كذلك، لم يعد عابدين على غرار أجداده يهز الشجرة مرتين أو ثلاث مرات قبل القطف، فيسقط «الحب» الصالح للكبيس أو للصابون. ما يفتقده الرجل الطيّب هو أيام «العونة» بين أهل الضيعة، أي «اللي بيخلص رزقاتو بيساعد جاره». يتمسك بجودة الزيت وسماكته التي تنتجها طريقة العصر القديمة: الحجرين. يرفض استخدام المصفاة في المعاصر الحديثة «الحماوة تؤكسد الزيت وتمصله، أما على البارد فيخدم 10 سنوات».

في الحقل، كانت المرأة رفيقة الرجل «وما تقبل إلا تمشي قدامو»، تقول قرنفلة حمادة بثقة وطيبة لافتة. تجزم الحاجة الثمانينية أنّها كانت تعمل أكثر من الرجل وفي كل أنواع القطاف، «أما نساء اليوم، فلا يعرفن أين هي الأرض. وإذا قررن مساعدة رجالهن، فعملهن يقتصر على جمع حب الزيتون وتمشيق الأغصان المنخفضة». تذكر أنّها قطفت وحدها في إحدى السنوات 175 تنكة زيتون «بالأمس كان هناك بركة. حالياً، يتكدس الزيت في المعاصر ولا يجد من يشتريه». تبدو حمادة فخورة لأنها علّمت أولادها من «الزيتونات».

«انشا الله الموسم على خاطركن... الله يطرح البركة»، تكاد العبارة تتردد في معظم قرى إقليم الخروب. في برجا، يجتاح الباطون حقول الزيتون، والبركة لم تعد كما كانت سابقاً. هذا ما يقوله أبناؤها. يستعيد صاحب معصرة موسكو الحديثة، علي دمج، مشهد جدته وهي تجمع «سواد» الحمير لتضعه حول جذع الشجرة. المقص لم يكن يفارق يديها لتقليم الأغصان اليابسة. يظن الرجل أنّه مع رحيل ما تبقى من المعمّرين سينتفي الاهتمام بالأرض، على قاعدة «شرايتو ولا ترباتو». يروي هنا ما حصل مع إحدى زبوناته، فقد دفعت مليونين ونصف مليون ليرة تكاليف الحراثة والتقليم والمواد الكيماوية وأجرة القطف للعمال، لتنال في نهاية المطاف 10 تنكات زيت.

> **كان الأجداد يهزون الشجرة مرتين أو ثلاث مرات قبل القطاف**

أما في الماضي، فكان الخير يفيض عنّا وكانت الأشجار تضحك لأن المعول كان يلازم الفلاح، يقول محمود ترو الذي يعمل «بالفاعل» وفي معاصر الزيتون منذ 40 عاماً. اللافت ما يرويه عن المقايضة بين الحلويات العربية والزيتون. كيف؟ يحضر أهل صيدا ومعهم نمورة وصفوف «فنداكش كل كيلو حلو بـ 3 مجاميع زيتون». يستدرك: «ذهبت تلك الأيام إلى غير رجعة. ماتوا العتاق». ينفي جمال الغوش صحة مقولة «الزيتون سنة بيحمل سنة لأ»، شرط أن لا يتذكر صاحب الرزق أرضه وقت القطاف فحسب. الغوش اختبر ذلك شخصياً، فهو يملك معصرة في بلدته ويضمن أراضي مزروعة بالزيتون في عكار. يقول: «الزيتون ليس مزحة، وعليك أن تتكلّف عليه ليطعمك». يوافقه الرأي شكر الله البستاني الذي قدم من حارة بعاصير لعصر زيتونه، على خلفية «كل شي بالأمل ما عدا الرزق». يجزم السبعيني أنّه سيبقى يعامل أرضه مثلما كان يعاملها أبوه حتى يسلمها لأبنائه «اللي ما بيدعسوها ولا بيعرفوها».

ليس بعيداً عن برجا، لم تعد البرجين قرية زراعية نموذجية كما كانت في السابق، يقول سامي أبو عرم، الناشط في المجال الزراعي. ويشرح كيف كان الزيتون المصدر الأساسي لدخل كل العائلات، فلم تعتمد عليه في تعليم أولادها فحسب، بل كانت تشتري الأراضي من «غلة» الموسم. يتحدث هنا عن اكتفاء ذاتي، إذ كان كل مزارع يملك فدان بقر يستخدمه في الحراثة ويعتمد روثه سماداً طبيعياً لأشجار الزيتون. وكان هناك تجار في الضيعة يجمعون الزيت من المنازل ليبيعوه في بيروت. اليوم، يحمّل الرجل سياسيي المنطقة مسؤولية تصريف الانتاج وخصوصاً أنّ التعاونيات الزراعية التي أنشأوها لا تفي بالغرض.

«برنامج تجميع الزيت» أكل ولم يدفع

دخل مزارعو الزيتون موسماً جديداً، في وقت لم يسددوا فيه حساباتهم عن الموسم الفائت الذي شهد كساداً في الزيت. فالبرنامج الوطني لتجميع زيت الزيتون الذي أطلقته الحكومة لشراء الزيت لمصلحة الجيش اللبناني، لم يكن حلاً للتخفيف عن المزارعين. والسبب أن الجيش تسلم الكميات التي طلبها (100 ألف تنكة)، لكن الحكومة لم تدفع ثمنها. وبحسب مصادر في التعاونيات الزراعية، فإن سبب التأخير في صرف المستحقات يعود إلى قرار وزارة المال تحويلها إلى الحساب المصرفي لكل مزارع. لكنها آلية طويلة دفعت وزير الزراعة حسين الحاج حسن إلى اقتراح دفع شيكات للمزارعين مباشرة.

المفارقة أن الحكومة تستعد لإطلاق الدورة الثانية من البرنامج، فيما بدأت التجربة الأولى بتسعيرة منخفضة للزيت وفرض إخضاعه لفحص الجودة ونقله وتخزينه على حساب المزارع، وانتهت بالتأخر في دفع ثمنه.

في جبيل والبترون: «السنة مش سنتو»

جوانا عازار

لا يشبه موسم الزيتون في قضاءي جبيل والبترون العام الماضي. هو نصف موسم، يقول صاحب معصرة الريحانة في جبيل رمزي معوّض، وإن تفاوت الإنتاج بين منطقة وأخرى في القضاء. فالغلة مقبولة في المناطق الساحليّة ومتدنية في البلدات الوسطى مثل معاد وبجّة وغلبون وبنتاعل والكفر وغيرها. والسبب، برأي صاحب معصرة بولس في جدّايل ـ جبيل طوني بولس، يعود إلى اختلاف العوامل الطبيعيّة وتغيّر الطقس.

وفي مقارنة يجريها بولس فإنّ نسبة «الجفت» بلغت العام الماضي 300 طن لتبلغ هذا العام 70 طناً، فيما لا يزال زيت الزيتون في الخوابي من دون تصريف، وسط مضاربة الزيت المستورد من الخارج، علماً بأنّ الأخير لا يضاهي جودة الزيت اللبنانيّ ونظافته. ويطالب بولس وزير الزراعة بوضع خطة لتسويق الإنتاج وتصديره.

الوضع في قضاء البترون ليس أفضل حالاً. هنا الزيتون «ما عم يعطي»، والنتيجة انخفاض نسبة إنتاج الزيت. الإنتاج جيد في بلدات وجه الحجر، عبرين، حامات وغيرها وغير مرضٍ في بلدات بترونيّة أخرى. يقول ميشال هيكل من بلدة كفرعبيدا إنّ المزارعين يحتاجون من الدولة اللبنانية إلى تكثيف الدراسات التي تصبّ في مصلحة المزارعين واتّخاذ الخطوات الأفضل لتصريف إنتاجهم وتسويقه. ومع ذلك، يشير هيكل إلى أنّ الموسم في البترون أفضل من الكورة، متوقّعاً أن ينتهي عصر الزيتون في البترون منتصف الشهر الحالي تقريباً.

المزارعون في القضاءين يتحدّثون عن مصاريف يتكبّدونها للاهتمام بالزراعة والقطاف، فضلاً عن مشكلة ندرة العمّال، وخصوصاً السوريّين منهم الذين كانوا يساعدونهم في القطاف.

ويشير معوّض إلى أنّ موسم الزيتون يبدأ فعليّاً في جبيل مع بداية شهر تشرين الأوّل ويستمرّ بالإجمال حتّى بداية شهر كانون الأوّل إذا كان الموسم جيّداً. بعد القطاف، يجتاز الزيتون في مرحلة أولى الطحن بواسطة الحجر ليتحوّل بعدها إلى المكبس، وصولاً إلى المرحلة الأخيرة في المصفاة حيث يفرز الزيت عن المياه.